الباب الرابع

في مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكي في طبقاته عن مؤلفات الغزالي، وتبعه الزبيدي في شرح الإحياء، ثم كتب جرجي زيدان في صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالي، وتمتاز هذه الكلمة بشيئين: الأوّل ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها، والثاني الإشارة إلى أماكن وجود النسخ النادرة، مخطوطة كانت أو مطبوعة، إلا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر ما نوه جرجي زيدان بندرته أصبح اليوم في المكاتب والأسواق.

وأهم كتب الغزالي فيما نحن بصدده من درس الأخلاق، «كتاب الإحياء»، وسنكتب عنه كلمة مفصلة وكتاب «ميزان العمل» وهو يقع في ٢١٥ صفحة، ونحسبه يفضل في دقته كتاب الإحياء، بل يشبه أن يكون خلاصة له، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه «معيار العلم». وقد قال في مقدمته: «لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل، وافتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار، وفرغتنا منه، وجب معرفة العلم المسعد، والتمييز بينه وبين العمل المشقي، فافتقر ذلك أيضا إلى ميزان، فأردنا أن نخوض فيه.... إلخ» وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف.

ويلي هذين الكتابين في الأهمية كتاب «الأربعين». وهو جزء من كتاب «جواهر القرآن»، كما ذكر صاحب كشف الظنون، وقد وضع بعد الإحياء، وهو قريب منه في الموضوعات وفي التبويب.

ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب «منهاج العابدين» وهو آخر مصنفاته، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة. ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عرب أنه ليس له، وإنما هو لأبي الحسن علي بن عليل السبتي، وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالي من التآليف.

وهناك «التبر المسبوك في نصيحة الملوك»، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه، وعن هذا الكتاب أخذنا رأي الغزالي في آداب الكتاب وواجبات الملوك، وحقوق الوزراء. وسترى بعد، كلمة في نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي، وهو يقع في ١٢٤ صفحة وتجده مشحونا بالأقاصيص، وهي فكرة حسنة في الترغيب والترهيب، ولم يختص بها كتابه هذا، ولكنها فيه أظهر من سواه.

ولا تنس كتابه «المنقذ من الضلال» ففيه صورة صادقة لحياته العقلية، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهده من الحركة العلمية في عصره ذاك، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشف لنا عن قلب أبيض، ونفس تجيش بالإخلاص.

وكتابه «المستصفى في الأصول» كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم، وحسن الأداء.

ورسالته «مشكاة الأنوار» تمثل لنا رأيه في منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بني عليه العالم من دقائق الجمال، وقد توسع في شرح قوله تعالى: {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح}[1] إلى آخر الآية.

ويعد الغزالي من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس(!) وأهمها جميعًا كما قدمنا هو كتاب الإحياء وهو سبب ما رزق من الخلود.

---

[1] سورة النور: ٣٥.

الفصل الأول

طريقته في التأليف

وللغزالي في التأليف منهج جميل، فهو يشرح أولا المذهب الذي يريد نقده، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتابا في مقاصد الفلاسفة، حين هم بتأليف كتاب في تهافتهم، ويقول في كتابه ذاك: «ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهملًا مرسلًا، من غير بحث عن الصحيح والفاسد، حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جدًّا وتشميرًا في كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة».

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية، وقد ذكر في «المنقذ من الضلال» ص٢٠، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكر عليه مبالغته في تقرير حجتهم، وقالوا: هذا سعي لهم، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات، لولا تحقيقه لها، وترتيبه إياها، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم إلى حد الإمكان ثم يظهر فسادها، وهذا منهج لا نسرف أن كررنا أنه جميل.

ومما تمتاز به خطة الغزالي في التأليف، الاعتماد على الخطابيات في إصلاح القلوب، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل، يبدأ بذكر ما ورد في حمدها من الآيات، يعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث، ثم الأخبار، ثم الآثار، وينطلق بعد ذلك في ذكر القصص والحكايات التي تستولي على قلب القارئ، وترسم في نفسه أثر تلك الفضيلة، وما لها من مقام محمود، والأمر كذلك إذا تكلم عن رذيلة من الرذائل، وهو في هذا الباب لا يعتبر مبتكرًا، فقد سبقه القصاص، ولكنه آخر عفى على الأولين؛ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة، وهو استنكار على غير

أساس. ويكفي أن تقرأ كتب سميلز الإنكليزي المتوفى في ١٦ أبريل سنة ١٩٠٤ تعرف حسن هذا المنهج في رأي المعاصرين، فإني لم أر أحدًا يستنكر منهج سميلز في الإكثار من الأقاصيص للترغيب في مكارم الأخلاق.

وتمتاز كتب الغزالي الأخلاقية بأنها صالحة لكل قارئ، فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة، أو فريق خاص، وإنما وضعها لجمهور المسلمين.

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالي: وهي إقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة، تخلب العقول، وتمتع القلوب. وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن إنما يحسن باختياره أنه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك إلى القلم: إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة، لا تمتد إلى الأصبع، ومنها إلى اليد، ومنها إلى القدرة المحركة لليد، ومنها إلى الإرادة التي القدرة مسخرة لها، ومنها إلى المعرفة التي يتوقف انبعاث الإرادة عليها، ومنها إلى صاحب القدرة والعلم والإرادة[1].

ويشبه الضعيف القلب، بالحمار في معلفه، والدجاج في قفصه يرمق ما تعود من صاحبه، لا يكاد ينفك عن ذلك، وتقاعدت نفسه عن معالي الأمور، وانقطعت همته، فلا يكاد يقصد أمرًا شريفًا[2].

والذي يعبر بنظره كتاب الإحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج، يرى البدائع الفنية، وألوان البيان، في طرق الترغيب والترهيب، وهو يجيد في التخييل حتى يغلب القارئ على أمره، ويشككه في نفسه، ويحمله قهرًا على أن يدرس نفسه من جديد،

---

[1] ٢٧٩ الأربعين.

[2] ٧٦ منهاج.

وهذا وجه الخطر في مؤلفات الغزالي، إذ كانت في الأغلب وساوس صوفية غشيت بألوان السحر والفتون، فلا يسلم منها إلا العالمون والأقوياء.

الفصل الثاني

الصوت المردد في مؤلفات الغزالي

ومع محاكاة الغزالي لمن تقدمه من المؤلفين، فإنا نراه يكرر كثيرًا الأفكار، والعبارات، والأمثلة، حتى لنظن بضاعته واحدة، في جميع مؤلفاته، ويمكن الحكم بأن الإحياء، والأربعين، والميزان، والمنهاج، والتبر المسبوك، والأدب في الدين، وبداية الهداية، وجزءًا كبيرًا من مؤلفاته في الفقه والتوحيد، أقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية. ولو أننا وازنا بين كتبه في باب كتاب الإخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة، والعبارات واحدة، وإنما تختلف بالإطناب والإيجاز.

وإذ كان الرجل مفتونًا بآراء الصوفية فإنا نجد تأثره بهم يختلف اختلافًا قليلًا بحسب الظروف، فهو في المنهاج، أقرب إليهم منه في الإحياء، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك.

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالي بمصنفاته العديدة: فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة، فيمنع ما تمنع ويبيح ما تبيح. وتارة يساير الصوفية، فينصرهم فيما يَسْمُون إليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص!

وينتج مما سلف أن الغزالي ليس من المبتكرين المبدعين، وإنما يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذي أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم، وإن لم يكن ذلك

الناقوس من صنع يديه، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الغزالي، ثم هرعوا إليه، فوجدوا كتاب الإحياء في يمناه، وما زالوا به يحلمون.

الفصل الثالث

كتاب الإحياء

هو أهم ما كتب الغزالي في الأخلاق، ألفه في أخريات حياته حين جنح إلى اعتزال الناس، ثم قرأه في دمشق وبغداد، ووضع له مختصرات عديدة، منها الوجيز، ومنها المبسوط.

وقد أسسه على أربعة أرباع: ربع العبادات، ويشتمل على كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وربع العادات، ويشتمل على كتاب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

وربع المهلكات: ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والرياء، وكتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغرور.

وربع المنجيات: ويشتمل على كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب النية والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر، وكتاب ذكر الموت.

ونظرة إلى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالي بكتاب الإحياء، وليس كثيرًا أن ذكرنا هذا البرنامج، فإن الإحياء عمدتنا فيما قصدنا إليه من تحرير ما وضع الغزالي في الأخلاق، ومن الخير أن نذكر رأي الغزالي نفسه في ذلك الكتاب الممتع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اختطه في شرح العبادات، والعادات، والمهلكات، والمنجيات: «ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتبًا، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه، ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه، وإثبات ما حرروه.

الخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلًا، إذ الكل وإن تواردوا على منهاج واحد فلا مستنكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه».

الفصل الرابع

أغلاط الإحياء

نذكر هنا شيئًا من المآخذ التي أخذها المتقدمون على الغزالي فيما يخص كتاب الإحياء؛ لأن في ذلك بيانًا لقيمة هذا الكتاب في نظر المتقدمين، ولأن فيه تمهيدًا لما نحن بسبيله من نقد آراء الغزالي في الأخلاق.

١- نقل السبكي في طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المازري قال وقد سئل عن الإحياء: «إن الغزالي يستحسن أشياء مبناها على ما لا حقيقة له، مثل قوله في قص الأظفار: تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة»!.

٢- وأنكروا عليه كما نقل الزبيدي، قوله في الإحياء: ليس في الإمكان أبدع مما كان، واستندوا في إنكارهم إلى أن هذا يوهم عجز الجناب الإلهي، وهو كفر صريح، وإنما انحصر إنكارهم في هذه الوجهة لإغراقها في المباحث الدينية، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة في سبيل الاختراع.

٣- ونقل الزبيدي عن الأجوبة المرضية للشعراني أن مما أنكر على الغزالي قوله: يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال، إن قطعت قطعًا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقَّع به ثوب آخر! وقد أجاب الزبيدي على هذا بجواب مضحك جاء فيه: «وبالجملة فلو كان جميع أموال الدنيا وأمتعتها بيد الفقير ورأي حضور قلبه مع الله تعالى لحظة بإتلافها كلها، بحرقها أو رميها في بحر لكان ذلك بطريق الاجتهاد، ولا لوم إلا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله إسرافًا وسفهًا» وقد فات الزبيدي أن غرض المنكر ليس منصبًا على التبديد والإسراف،

وإنما هو موجه إلى الخروج من الوقار، فإنه لا مرية في أن غرض الشرع من التجمل إنما يرجع إلى الرغبة في أن يسبغ على المؤمن رداء الجلال.

٤- ومما أنكروا عليه قوله في الإحياء: المقصود بالرياضة تفريغ القلب، وليس ذلك إلا بالخلوة، والجلوس في مكان مظلم، فإن لم يكن مظلمًا لف رأسه في جيبه، أو تدثر بكساء أو رداء فإنه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية(!؟).

وقد تنبه ناقدوه إلى أن التقلل من الطعام قد يورث الجنون! فمن يدرينا أن ما يسمعه المتريض هو نداء الحق، أو أن الذي يشاهدوه هو جلال الروبية، ومن يضمن أن لا يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة!

٥- وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد: إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام(!).

٦- وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع في برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (!؟) قالوا: وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الهلاك؟

٧- ومما أنكروا عليه قوله: كان بعض الشيوخ في بدايته يكسل عن قيام الليل، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه إلى قيام الليل اختيارًا، وكذلك عالج بعضهم حب المال: فباع جميع أمتعته ورمى ثمانها في البحر خوفًا من أن يقع في حب تزكية الناس له، ووصفه بالجود، أو الرياء في فعلها، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على رءوس الأشهاد ليعود نفسه الحلم،

وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة، وكان بعضهم إذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم(!)

قال ابن القيم: وإني لأتعجب من أبي حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور التي تخالف ظاهر الشريعة، وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه طول الليل، وكيف يحل رمي المال في البحر، وكيف يحل سب المسلم بلا سبب، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتمه، وهل يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتنكسر رقبته فيموت؟؟

٨- ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن الكربتي شيخ الجنيد أنه قال: نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فشتَّ قلبي، ونفر منه، فدخلت الحمام، وسرقت ثيابًا فاخرة ولبستها، ثم لبست مرقعتي فوقها، وخرجت فجعلت أمشي قليلًا قليلًا، فلحقوني وأخذوا مني الثياب، وصفعوني وسموني لص الحمام، فسكنت نفسي(!؟) قال الغزالي: فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر إلى الخلق ومراعاتهم لهم، وأهل النظر إلى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه، إذا رأوا صلاح قلوبهم في ذلك، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا في الحمام (!!)

قال ابن القيم: سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء؟ فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التي لا يحل لأحد السكوت عليها؛ ثم نقل نص الإمام أحمد والشافعي في أن من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده. ثم قال: وتعجبي من هذا الفقيه الذي استلب التصوف علمه وعقله، أكثر من تعجبي من هذا المستلب الثياب من الحمام! فيا ليت أبا حامد بقي مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهذيانات.

٩- وأنكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبي الحسن الدينوري أنه حج اثنتي عشرة حجة، وهو حاف مكشوف الرأس!

قال ابن القيم: وهذا من أعظم الجهل لما في ذلك من الأذى للرأس والرجلين، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر، وكان هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فنعوذ بالله من تلبيس إبليس. فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام، إذ يظنون أن فعل مثل هذا من الصواب.

١٠- وأنكروا عليه تقريره عن أبي الخير الأقطع التيتاني قوله: أني عقدت مع الله عهدًا أن لا آكل شيئًا من الشهوات، فمددت يدي إلى ثمرة في شجرة فقطعتها، فبينما أنا أمضغها إذ ذكرت العهد فرميت بها من فمي، فدار بي فرسان وقالوا: قم! وأخرجوني إلى ساحل بحر إسكندرية، وإذا أمير وحوله خيل وجند، فقالوا: أنت من اللصوص، وإذا معهم جماعة من لصوص السودان، فسألوهم عني، فقالوا: لا نعرفه، فكذبهم الأمير وشرع يقدم يدًا ويقطعها إلى أن وصل إلي وقال لي: تقدم ومد يدك، فمددتها فقطعت إلى آخرها!! قالوا: فانظروا ما يفعل الجهل العظيم بصاحبه، فلو أن عند التيتاني رائحة علم، لعلم أن ما فعله حرام عليه، وليس لإبليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء إلا من الجنون.

١١- وأنكروا عليه قوله: إن الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!)

قال ابن القيم: هذا جهل مفرط منه. وأصل ذم الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم إلى الرياسة إلا بعد طول زمان، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزي، وصلاتهم بالليل، وصيامهم بالنهار، وتقصير الثياب والأكمام.

١٢- وأنكروا عليه حكايته عن أبي تراب النخشبي أنه قال لمريد له: لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة، كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (!؟)

قال ابن القيم: وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات.

١٣- وأنكروا عليه تقريره لرمي الشبلي ما كان معه من الدنانير في دجلة، وقوله: ما أعزك عبد إلا أذله الله تعالى.

قال ابن القيم: وأنا أتعجب من أبي حامد أكثر من تعجبي من هؤلاء الجهلة بالشريعة، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم، لا على وجه الإنكار، وأي رائحة بقيت من الفقه عند أبي حامد حتى يكتب عنه شيء من العلم؟ فإن الفقهاء كلهم يقولون: إن رمي المال في البحر لا يجوز.

١٤- وأنكروا عليه تقريره قول أبي سليمان الداراني: إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش، أو تزوج، فقد ركن إلى الدنيا(!؟) قالوا: هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة. وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد: «إن الملائكة لتضع أجنحتها على طلب العلم»؟ وكيف لا يطلب المعاش. وقد قال عمر رضي الله عنه: «لأن أموت من سعي رجلي أطلب كفاف وجهي أحب إلى من أن أموت غازيًا في سبيل الله؟» وكيف لا يطلب التزويج، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول: «تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة؟».

١٥- وأنكروا عليه تقريره قول أبي حمزة البغدادي: أني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان: وقد اعتقدت التوكل، لئلا يكون شبعي زادا تزودت به(!) قالوا: ومن العجب اعتذاره عن أبي حمزة بقوله: كلام أبي حمزة صحيح، ولكن يحتاج إلى شرطين: أحدهما أن تكون للإنسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن

الطعام أسبوعًا ونحوه. الثاني أن يمكنه التقوت بالحشيش، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذي معه طعام بعد أسبوع، أو ينتهي إلى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته.

قال ابن القيم: أقبح ما في هذا القول صدوره من فقيه فإنه قد لا يلقى أحدًا. وقد يضل، وقد يمضي فلا يصلح له الحشيش، وقد يلقاه من لا يطعمه، وقد يموت فلا يدفنه أحد.

١٦- وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد حيث قال: هذا من فعل رجال الله – قيل له: فإن مات؟ قال: الدية على العاقلة(١) قالوا: هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة، إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز لحد دخول البادية بغير زاد، وإن فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة في الآخرة.

١٧- وأنكروا عليه أيضًا ما حكاه عن شقيق البلخي أنه رأى مع شخص رغيفًا ليفطر عليه من صومه فهجره، وقال: تمسك رغيفًا إلى الليل!

١٨- وكذلك أنكروا عليه قوله: اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو إلى تحصيل العلوم اللدنية، دون العلوم النقلية، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون، وإنما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده، والاشتغال بذكر الله فقط(!؟)

١٩- وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}[1]. فقد قال: الأصنام الذهب والفضلة. وعبادتها حبها والاغترار بها. وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد.

٢٠- وأنكروا عليه أيضًا تقريره قول سهل التستري: أن للربوبية سرًّا لو ظهر لبطلت النبوة، وأن للنبوة سرًّا لو ظهر لبطل العلم، وأن للعلماء بالله سرًّا لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع(!؟).

وأنا أكتفي بهذا القدر من أغلاط الإحياء، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء في ذلك الكتاب، وسنرى في باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفة لم تخمد بموت الغزالي، بل ظلت ثائرة عدة أجيال. وما عجبت لشيء عجبي للزبيدي، فقد تولى تفنيد هذه المآخذ، واحدًا واحدًا، وهو تعسف ممقوت، يكفي أن تعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسلمة، من عرف، أو تشريع، وإنما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء. ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع إلى الجزء الأول من شرح الإحياء، من ص٢٧ إلى ص٤٠.

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكي عن الغزالي في قص الأظفار فقد قال: وأما ما ذكروه في قص الأظافر فالأمر المشار إليه يروى عن علي كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس في ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطئ. ومن دوام عليه أمن من وجع العين. ويرون من شعر علي كرم الله وجهه هذا:

ابدأ بيمناك وبالخنصر ... في قص أظفارك واستبصر

---

[1] سورة إبراهيم: ٣٥.

وأخـــتم بـــسبابتها هكـــذا ... فافعلـــه في الرجـــل ولا تمـــتر
وابـــدأ ليـــسراك بإبهامهـــا ... والأصـــبع الوســـطى وبالخنـــصر
ويتبـــع الخنـــصر ســـبابة ... بنـــصرها خاتمـــة الأيـــسر
هـــذا أمـــان لـــك قـــد حزتـــه ... مـــن رمـــد العـــين كـــما قـــد قـــري

والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب، وإلا فما هي الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية، وبين الأمن من وجع العين؟ وكيف قال علي بن أبي طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفصح الناس؟

الواقع أن الغزالي كان فتنة من فتن العصور القديمة، وقد نسي العلماء في الدفاع عنه أن هناك عقلًا يجب أن يحكم، وأنه لن يخلو العالم من أصحاب العقول، ولو كره الجامدون!

الفصل الخامس

غفلة الغزالي وعناده

-١-

أما غفلته فدليلها ما في كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وهي تقرب من ستمائة حديث.

وأنا لا أشك في نزاهة الغزالي وبعده من الكذب على رسول الله، فمحال على مثله في ورعه وتقواه أن يزور على النبي حديثًا، أو يضع في كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات. وحقيقة الأمر أن الرجل كان «يمتاز» بقسط كبير من الغفلة والبساطة، وإلا فكيف صدق أن النبي يقول: «أن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ». وأقل الناس علمًا بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث وكيف يصدق ما روى من أن جبريل نزل فقال: «إن الله يقرئك السلام. ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت؟».

وما لي أطيل في نقد ما جاء في الإحياء مما لا إسناد له من الأحاديث وهي مسطورة في طبقات الشافعية، في ثمان وثلاثين صفحة من الجزء الرابع. والضعف فيها ظاهر لا يحتاج إلى دليل.

-٢-

وأما عناده فدليله إصراره على إبقاء ما جاء في كتبه من الأغلاط ورميه ناقديه بالغباوة، والحسد، والكذب، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل نقدهم برفق، ويميز بين

الغث منه وبين السمين، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق، وأخذ برميهم بالزيغ والفسوق.

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه في الإنكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك، فكتب إليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم فصنف كتابا سماه: «الإملاء في إشكالات الإحياء». وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب، فهو في أيدي الناس، وإنما نذكر مقدمته لنرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون، فإن في هذا صورة لجانب من جوانبه الأخلاقية، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه، وإيمانه بصحة ما جاء في الإحياء، وعدم اكتراثه بآراء الناس.

قال: «سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغانيها، عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بإحياء مما أشكل على من حجب فهمه. وقصر علمه. ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطغام، وأمثال الأنعام، وأجماع العوام، وسفهاء الأحلام، وعار أهل الإسلام: حتى طعنوا عليه. ونهوا عن قراءته، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته، ونسبوا مليه إلى ضلال وإضلال، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال، فإلى الله انصرافهم ومآبهم. وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم، فستكتب شهادتهم ويسألون، {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون}[1]. بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. ولكن الظالمين في شقاق بعيد. ولا عجب فقد ثوى[2] دلاء الطريق

---

[1] سورة الشعراء: ٢٢٧.

[2] هلك.

وذهب أرباب التحقيق، فلم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة، متصفين بحكايات موضوعة، متزينين بصفات منمقة، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة، ومتقاطعين بحجج غير صادقة، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة ثناء، أو مغالبة نظراء. قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر. وتآلفوا جميعًا على الفعل المنكر. وعدمت النصائح منهم في الأمر، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر، إن نصحهم العلماء أغروا بهم، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم، أولئك الجهال في علمهم، الفقراء في طولهم، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ولا ينجح تابعهم، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة، ولا بستر عوراتهم لباس الخشية؛ لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء، ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء، وكرامات الأوتاد، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق. وعلموا علم أهل الباطن»... إلى آخر ما قال.

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالي يصر بعد أن نقده معاصروه على التشبث بأذيال الصوفية. ويمكننا أن نتوقع ما سيجيب به في كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية، ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن، لنخرج كل ما نقلناه في آرائه الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ولنرجع إسرافه في بعض المواطن إلى هذا الأصل الذي اختاره وارتضاه وهو التصوف وإلا فمن هم النقباء، والنجباء، والبدلاء، والأوتاد، إن لم يكونوا جماعة من المتصوفة الذين يستبيحون ما لا يباح؟!

ومن أظرف ما أجاب به الغزالي فيما أخذ عليه من الأغلاط النحوية، أنه قليل الخبرة بالنحو، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط! ويا ليته نصح بمثل هذا في إصلاح ما ضل فيه من الأحكام!

الكذب على الغزالي

ومما يجب التنبه له أن الغزالي لم يسلم من الكذب عليه فقد وضعت المؤلفات باسمه، واتجر به المضللون. ويذكر الزبيدي من هذه الكتب: «السر المكتوم في أسرار النجوم» وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضًا إلى الفخر الرازي، وأنه سئل عنه فأنكره. ومما دس على الغزالي كتاب: تحسين الظنون، وكتاب النفخ والتسوية، وكتاب المضنون به على غير أهله. قال السبكي: ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه، ثم قال: معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختلفا موضوعا عليه. قال الزبيدي: والأمر كما قال: فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم، ونفى القديم بالجزئيات، وكل واحد من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون، فكيف يتصور أنه يقولها؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور علي العناني في محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون «المضنون به على غير أهله» هو ما بأيدي الناس؛ لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذي قصده الغزالي من «المضنون به على غير أهله» ويرجح الدكتور العناني أن يكون «المضنون به على غير أهله» كتابًا ضخمًا يشمل آراء الغزالي الفلسفية التي يضن بنشرها على الجمهور.

وعندي أن رأي الدكتور العناني صواب لأمرين: **الأول** أن الغزالي كان ينصح دائمًا بأن لا يلقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما في كتاب الإحياء وأمثال كتاب الإحياء الثاني ما ذكره الزبيدي من أن كتاب «المضنون به على غير أهله» يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات، فإن هذه المسائل لا توجد في النسخة التي يتداولها الناس. وقد رجح جورجي زيدان في فهرس تاريخ «الآداب العربية» أن كتاب: «التبر المسبوك»

مدسوس على الغزالي، وقد حاولت تحقيق ذلك، فوجدت ما يقرب رأي جورجي زيدان وما يبعده. أما ما يقربه فهو إسقاط اسم من ترجمه من الفارسية. وظهور الكتاب بمظهر الضعف في كثير من الموضوعات، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالي الأخلاقية، وإحالته على الإحياء في كلامه عن رذيلة الغضب إلا أن يكون من دسه عليه غشي فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية، التي توهم القارئ أن لا وضع ولا اختلاق. ومما لا مرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالي، فأما عددها فلا يزال مظنة الارتياب.

ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن نذكر القارئ بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالي في كتبه، باختلاف سنه، وصحته. فقد وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة، كان في بعضها يحكم العقل والشرع، وكان في بعضها يساير الصوفية في أوهامهم ووساوسهم. والرجل في الواقع معذور، فقد كان يؤلف في أوقات لا تصلح مطلقا للتأليف، لأنه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضي من الصحة وهدوء البال.